النسويّة الليبراليّة الغربيّة والنساء المقاوِمات العراقيّات

نوفة عماد خدّوري*
نقلها عن الإنكليزيّة: شيار يوسف

منذ اجتياح قوّات التحالف الأمريكيّة والبريطانيّة للعراق في آذار (مارس) ٢٠٠٣، ما فتئ وضعُ العراقيّات يتدهور. فقد تأثّرتْ حياتُهنّ مباشرةً بتزايد وتيرة العنف، وانعدامِ الأمن والفوضى، والتفكّكِ السياسيّ، وأُجبرت الأمّهاتُ والأراملُ والأخواتُ والبناتُ والعمّاتُ والخالاتُ والزوجاتُ على مواجهة واقعٍ قاسٍ. لكنّ من الخطر اعتبارَ العراقيّات ضحايا مسلوباتِ الإرادة، لا سيّما في ما يتعلّق بدورهنّ في حركة المقاومة الوطنيّة. فالواقع أنّهنّ ناشطاتٌ فاعلاتٌ في النضال ضدَّ قوات التحالف على الصعد السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة.

* - باحثة عراقيّة خرّيجة كليّة الدراسات الشرقيّة والأفريقيّة، جامعة لندن، في علوم الشرق الأوسط السياسيّة وهي أيضًا طالبةٌ قانون.

تزخر المكتباتُ الغربيّةُ بأدبيّاتٍ تعتبر العراقيّاتِ، أولاً وقبل كلّ شيء، ضحايا للاحتلال، ومن ثمّ فاعلاتٍ ضمن إطار الاحتلال،[1] لكنْ قلّما يُنظَر إليهنّ في وصفهنّ عناصرَ فاعلةً في مقاومة **الاحتلال**. فالحقّ أنّه عادةً ما يتمّ تمثيلُ النساء مفعولاتٍ لا فاعلات، ويقتصر دورُهنّ على أنواع مقاومةٍ «مقبولة،» كدورهنّ في المنظّمات النسائيّة والنشاطات الثقافيّة، لا في المقاومة المسلّحة. لكنْ إذا كان صحيحًا أنّ بعضهنّ أمّهاتٌ وربّاتُ منزلٍ خلال النهار، فإنّهنّ أيضًا مقاتلاتٌ من أجل الحريّة ليلاً. لم تعد العراقيّةُ تكتفي بالوقوف موقفًا دفاعيًا في ساحة المعركة؛ فقد تعلّمتْ مواجهةَ العدوّ بالوحشيّة التي تُواجَهُ بها كلَّ يوم. إلاّ أنّ هذا المنظور غالبًا ما يُهمَل من قِبل الناشطات النِّسْويّات الليبراليّات عند تناول الدور المنسوب إلى النساء اللواتي يشاركنَ في حركات المقاومة الوطنيّة وسأجادل في هذا المقال أنّ الكتابات الأكاديميّة والأبحاث النظريّة النسْويّة في الغرب تسيء تمثيلَ الدوافع والأهداف والسياقات المتعلّقة بمشاركة النساء في المقاومة الوطنيّة العراقيّة المسلّحة.

النِّسْويّة والوطنيّة/القوميّة

منذ بداية الثمانينيّات، حين بدأ موضوعُ النساء والوطنيّة يلقى اهتمامًا متزايدًا في الدراسات الأكاديميّة، اعتبرت الباحثاتُ النسويّاتُ الوطنيّةَ تجلّيًا للنظام البطركيّ (الأبويّ)، ومن ثمّ فهي تحدٍّ من تحرّر النساء السياسيّ. ووفقًا لشيرين حافظ،[2] فإنّ هناك مفاهيمَ مختلفةً جوهريًا بين ما تعنيه البطركيّةُ في الشرق الأوسط وما تعنيه في الغرب: «ففي الأوّل، تصف البطركيّةُ، عادةً، علاقاتِ القربى... أما في الثاني، فتُعرَّف البطركيّةُ بأنها منظومةٌ من علاقات اللامساواة المؤسسة ولا تتعلّق بالقربى.» الانتقاد الآخر لمشاركة النساء في النضال الوطنيّ هو أنّ هذه تساعد على تعزيز البطركيّة لأنّ النساء، بذلك، يشرِّعن الأجندةَ الوطنيّةَ التي يحدِّدها ويقودها الرجالُ. ويعزِّز هذه النظرةَ فهمٌ للوطنيّة باعتبارها تعتمد على التقاليد الجندريّة التي تحْصر دورَ النساء بواجبات التكاثر أو الإنجاب.

ثمّة اهتماماتٌ تبرز مرارًا في الكتابات الأكاديميّة النسويّة عن النساء وأدوارهنّ في النضال الوطنيّ. تشرح تيريزا أوكيفي[3] أنّ قضايا الوطنيّة، كما تحدِّدها النسويّاتُ، تطغى على نضالات المرأة في مناطق النزاع، بحيث لا تؤدّي مشاركةُ النساء في المقاومة الوطنيّة، بالضرورة، إلى تعزيز دور النساء السياسيّ. وتشير آن ماكلينتوك[4] إلى أنّه «في كثير من البلدان الوطنيّة أو الاشتراكيّة، لا تنال اهتماماتُ النساء أكثرَ من الإقرار اللفظيّ في أفضل الأحوال.» لا بل إنّ بعض النسويّات يجادلن بأنّ النساء اللواتي يشاركن في النضالات الوطنيّة إنّما يساهمن في قمع أنفسهنّ من خلال شرعنة البطركيّة. وتصرّ إليزابيث پورتر[5] في هذا الصدد على أنّه «في الوقت الذي تشارك فيه النساءُ بشكلٍ فاعلٍ في النضالات الإثنيّة والوطنيّة ـ من خلال التنظيم والحملات والاهتمام بحاجات الآخرين، أو حتى المشاركة في النضال المسلّح أحيانًا ـ فإنّه عادةً ما يكون الرجالُ عناصرَ فاعلةً بينما تبقى النساءُ رموزًا، وهذا ما يعزِّز القمعَ الجندريّ.» وعلاوةً على ذلك، كما تقول پاولا باشيتا،[6] «فإنّه على الرغم من الاعتراف المتزايد بدور النساء مقاتلاتٍ، فغالبًا ما يُفترَض أنهنّ يفعلن ذلك على أساس إيديولوجيّةٍ نظرائهنّ الذكور.» وبتعبيرٍ آخر، لا تُعدّ مشاركاتُ النساء في الحركات الوطنيّة المسلّحة مشاركاتٍ أنثويّة، وهو ما يُضْمر أنّ النساء الفاعلات في هذه الحركات يُدفعنَ، من دون وعيٍ إيديولوجيّ من طرفهنّ، إلى قضيةٍ لا تعنيهنّ كثيرًا.

بإمكان المرء أن يستخلص أنّ الفكر النسويّ الغربيّ لا يَعتبر النساءَ اللواتي يشاركن بشكلٍ فاعلٍ في حركات المقاومة الوطنيّة المسلّحة «نسويّاتٍ» حقيقيّات لأنهنّ لا يعملن تحت يافطة «الوعي النسويّ.» ويقترح هذا النوعُ من التصنيف أنّ النساء الملتزمات بالمقاومة الوطنيّة، أمسلّحةً كانت أمْ غير ذلك، أقلُّ اهتمامًا بالقضايا المتعلّقة بالمرأة، ولا سيّما تحرّرها السياسيّ في المجتمع. لكنْ، في حين قد يكون تحرّرُ المرأة همًا عامًا للعديد من حركات التحرّر الوطنيّ، فذلك لا يعني افتراضَ أنّ النضال من أجل تحرّر المرأة هو همُّ النساء الأوحد. وكما جادل العديدُ من الكاتبات النسويّات في الماضي، فإنّ في إمكان الحركات الوطنيّة أن توفّر مساحةً لمقاومة النساء ونهوضهنّ، مُخرجةً إيّاهنّ بذلك من المنزل إلى الشارع. غير أنّ هذا الجانب من نشاطات النساء غالبًا ما تعتِّم عليه الانتقاداتُ التي تمثّل موقفًا معارضًا للقوميّة والوطنيّة وطاغيًا على الأدبيّات الأكاديميّة الغربيّة.

---

١ ـ ناضجة العلي ونيكولا برات، **أيُّ نوع من التحرّر: النساء والاحتلال في العراق** (٢٠٠٩) بالإنكليزيّة وانظرْ أيضًا: ياسمين الجواهري، **التأثير الجندريّ للعقوبات الدوليّة: النساء في العراق** (٢٠٠٨) بالإنكليزيّة كذلك

٢ ـ شيرين حافظ، **شروط التمكين: الناشطات المسلمات في مصر** (٢٠٠٣)، بالإنكليزيّة

٣ ـ تيريزا أوكيفي، **مبادلة الصدريّة بالسلاح: المقاومة النسويّة في شمال إيرلندا** (٢٠٠٤)، بالإنكليزيّة.

٤ ـ آن ماكلينتوك، **ليس في فردوس مستقبليّ بعد الآن: الجندر، العرق، القوميّة** (١٩٩٨)، بالإنكليزيّة

٥ ـ إليزابيث بورتر، **بناء السلام: النساء في منظور دوليّ** (٢٠٠٧)، بالإنكليزيّة

٦ ـ پاولا باشيتا، **الجندر في الأمّة الهنديّة** (٢٠٠٤)، بالإنكليزيّة

النسويّة ونهوض المرأة

عند مناقشة قضايا تمكين المرأة (empowerment)، وهو تعبيرٌ مُتنازَعٌ عليه كثيرًا، تَفْشل الأدبيّاتُ النسويّةُ في تناول طُرق ذلك التمكين. وأستخدمُ كلمة empowerment باسترسالٍ في هذا النصّ لأنها قد تعني في العربيّة «التمكين» أو «النهوض» تعني الكلمةُ الأولى أنّ قوةً خارجيّة تمكّن النساءَ من تحقيق أهدافهنّ ويختلف هذا قليلاً عن الكلمة الثانية، التي تشير إلى أنّ النساء يحقّقن أهدافَهنّ باستخدام وسائلهنّ الخاصّة، الثابتةِ أصلاً في محيطهنّ أما أنا فأستخدم كلمة empowerment في هذا المقال، في ما يتعلّق بدور النساء في المقاومة الوطنيّة، بمعنى «النهوض.»

إنّ قضيّة النسبويّة الثقافيّة، ومعاينة نضالات المرأة في إطار وطنيّ تعدّديّ، أمران غايةٌ في الأهميّة في سياق هذا البحث. وتشير سالبة[1] إلى أنّ «الأبحاث الأكاديميّة [الغربيّة] عزّزتْ أحيانًا، وساءلتْ أحيانًا أخرى، الخطاباتِ الملبرلةَ عن الحداثة والوطنيّة الليبراليّة والنسويّة التي طُبّقتْ أو أسيء تطبيقُها على تجارب النساء العربيّات.» وتضيف ماكلينتوك أنّ النسويّة الغربيّة تطغى على خطاب النسويّات العربيّات لأنّ النساء في الغرب يتمتّعن بحظوةٍ نسبيّةٍ في مجالات النشر والإعلام والتعليم والمال.

النسويّة والمقاومة

لكنْ عند النظر إلى الموضوع من وجهة نظر مغايرة، يمكن المرءَ أن يلاحظ أنّ القوميّة أو الوطنيّة أمرٌ ترغب النساءُ في الإسهام فيه. وفي هذا المجال تشير هيفاء زنكنه[2] إلى أنّ «هناك محاولةً لتوضيح كيفيّة استمرار النساء العربيّات والمسلمات، خصوصًا في العراق، في تشكيل تاريخنا الحديث ردًا على الوضع المأسويّ الذي يجدن أنفسهنّ فيه نتيجةً لتحدّياتٍ خارجيّةٍ ومحليّة.» وإنْ لم نأخذ ذلك في عين الاعتبار، فسنُهمل أحداثًا حقيقيّةً تهمّ النساءَ العربيّات. وتؤكّد صبا محمود[3] أنّ النسويّات الغربيّات غالبًا ما يهملن مجادلاتِ النساء في أمر الدين، وغالبًا ما يُؤوّل بحثُهنّ عن الخشوع والطاعة على أنه «ذاتيّة مزيّفة» (false subjectivity) ضمن الحركة النسويّة. ولمّا كانت الأدبيّاتُ النسويّةُ العربيّة والغربيّة تختلف من حيث استهدافُها قضايا وتحدّياتٍ مختلفةً تواجهها النساءُ في الشرق الأوسط، فإنّ من الضروريّ أخذَ ما تعنيه الوطنيّةُ بالنسبة إلى النساء العربيّات في الاعتبار، ليس من وجهة نظر غربيّة، بل من وجهة نظر النساء العربيّات.

فعلى سبيل المثال، بينما تجادل النسويّاتُ الغربيّاتُ أنّ القوميّة غيرُ متوافقة مع النسويّة، فإنّ النضال الوطنيّ ــ القوميّ ضرورةٌ بالنسبة إلى النساء الفلسطينيّات اللواتي يقاتلن من أجل حقّ تقرير المصير والبقاء على قيد الحياة كشعب.[4] إنّ المشاركة في المقاومة الوطنيّة المسلّحة تقدّم للنساء العراقيّات إمكانيّةً لكسر الحدود بين الفضاءين الخاصّ والعامّ، واستخدام تسييسهنّ لخدمة القضيّة الوطنيّة بهدف توسيع حدودِ فهمهنّ لما يجب الإسهامُ في تحريره.

ومع ذلك، فلا بدّ من توخّي الحذر من المبالغة في فوائد الوطنيّة والمقاومة بالنسبة إلى النساء، لأنّ لهما عواقبَ سلبيّة كذلك، كما سبقت الإشارة. علاوةً على ذلك، فإنّ بعضَ أشكال المشاركة في المقاومة تتموضع حتمًا داخل النظام البطركيّ، إذ إنّ نساء المقاومة عادةً ما يكنّ مسؤولاتٍ عن الطبخ ومداواة المرضى. لكنّ للوطنيّة والقوميّة نتائجَ إيجابيّةً كذلك، وعلينا تناولُ هذه أيضًا عند معاينة علاقة النساء العراقيّات بالمقاومة الوطنيّة. وعليه، فإنّ مثال النساء العراقيّات المقاومات لا تنطبق عليه قواعدُ الوطنيّة في المنظور الأكاديميّ الغربيّ على العكس، فمشاركتُهنّ في المقاومة جزءٌ من تحرّرهنّ.

تشرح وجهاتُ النظر أعلاه كيفيّةَ استخدام الحركات الوطنيّة للنساء من أجل دعم القضيّة الوطنيّة، لكنّها تفشل في معاينة **كيفيّة وأسباب** انخراط النساء في صنع وطنهنّ والدفاع عنه، لا سيّما في حالة العراق. إذ لم يُكرّس اهتمامٌ كافٍ لفهم كيفيّة تعبئة النساء سياسيًا وعسكريًا بعد غزو ٢٠٠٣، داخل حركة المقاومة الوطنيّة وخارجها. وكان هذا هو السببَ الأساسَ وراء بحثنا هذا الذي يسعى إلى الإجابة على السؤال الآتي: إلى أيّ مدًى تكون النسويّةُ الليبراليّة أداةً مفيدةً لتقييم المقاومة الوطنيّة، وكيف يؤثّر ذلك في تكوين انطباعنا عن النساء داخل المقاومة الوطنيّة العراقيّة؟

النساء والمقاومة المسلّحة في العراق

لا تقتصر مشاركةُ النساء في المقاومة الوطنيّة العراقيّة المسلّحة، بالضرورة، على أعمال العنف وحسب، بل هنّ عناصرُ فاعلةٌ سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا أيضًا لكنّي سأقتصر هنا على دورهنّ السياسيّ والعسكريّ فقط.

تُعرَّف المقاومة السياسيّة، بناءً على مقابلاتٍ أُجريتْ في صيف ٢٠١٠،[5] بأنّها «فضحُ لوحشيّة المحتلّين ومجموعاتٍ حكوميّةٍ وميليشياتٍ أخرى، والتحدّثُ علنًا ضدّ الاتهامات الزائفة

---

١ ــ تيريزا سالبة، «النسويّة العربيّة عند مطلع الألفيّة،» في **النسويّة عند مطلع الألفيّة (٢٠٠٠)**، بالإنكليزيّة

٢ ــ هيفاء زنكنه، **مدينة أرامل (٢٠٠٩)**، بالإنكليزيّة

٣ ــ صبا محمود، **سياسة الطاعة: الصحوة الإسلاميّة والذات النسويّة (١٩٩٨)**، بالإنكليزيّة

٤ ــ سالبة، مصدر سابق

٥ ــ أجريتُ المقابلات بنفسي مع عراقيّات وعراقيين من خلفيّات سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة مختلفة بين حزيران وتموز ٢٠١٠

الموجّهة إلى المقاومة المسلّحة، والمساهمةُ في الدعم الماليّ للمقاومة حيثما أمكن.» وعمليًا، تشمل المقاومةُ السياسيّة الكتابةَ والتنظيمَ وترويجَ أدبيّاتٍ معاديةٍ للاحتلال ومؤيّدةٍ للمقاومة، ولا تستهدف بالضرورة تحقيقَ تحرّر المرأة السياسيّ.

بإمكان الحركات الوطنيّة أن توفّر مساحةً لمقاومة النساء ونهوضهنّ، مُخرجةً إيّاهنّ بذلك من المنزل إلى الشارع.

في مقابلة مع مريم،[1] جرى النقاشُ التالي:

ـ نوفة. ما هو دافعكِ للانضمام إلى المقاومة؟

ـ مريم: لستُ حرّة. أنا لست حرّة بالمفهوم الأكثر أساسيّةً لوجود الإنسان، إذ مادام هناك احتلال فنحن لسنا أحرارًا

ـ نوفة: إذا انتهى الاحتلال وانسحب جنودُه، فهل ستعتبرين نفسكِ حرّة؟

ـ مريم: احتلالنا ليس أجنبيًا فقط؛ فنحن محتلّون من قبل حكومة العراق أيضًا. إنّ حكومةً مستوردةً تعني أنّ الإنسان(ة) العراقيّ ليس حرًا في أرضه.

لكنْ كيف يميّز المرءُ (إنْ كان عليه أن يفعل ذلك أصلاً) بين المتمرّدين والمقاومة والإرْهاب؟ وفقًا للنساء اللواتي أجريتْ معهنّ المقابلات، «لا تقتل المقاومةُ المسلّحةُ الشريفةُ في العراق، والتي تمثّل الشعبَ العراقيّ، العراقيين، بل تَستهدف تحديدًا المُحتلّ وجميعَ مَن جاؤوا معه.» وقد كان التماسكُ الداخليّ حول معنى أن يكون المرءُ جزءًا من المقاومة، وهو ما اتفقتْ عليه كلُّ اللواتي قابلتهنّ، مثيرًا للفضول، الأمرُ الذي تطلّب المزيدَ من الفهم. فقد اتفقن على أنّ عمليّات المقاومة المسلّحة تستهدف جنودَ الاحتلال والمسؤولين الحكوميّين العراقيّين المتعاونين مع الاحتلال.

ما هو، إذنْ، هدفُ هذه العمليّات بالنسبة إلى العراق وفقًا لاعتقاد هؤلاء النساء؟ أُعطيتْ إجاباتٌ مختلفة، لكنّ إجابتين كانتا شائعتين وحلّتا دائمًا قبل غيرهما من الأسباب المُعطاة: ١ ـ تخليص العراق من محتلّيه وفضح جرائمهم كلّها.[2] ٢ ـ تأمين الحقّ الإنسانيّ الأساسيّ بـ «الحياة» لكلّ رجل وامرأة وطفل عراقيين.

وقد اعتبر العديدُ من النساء اللواتي أُجريتْ معهنّ المقابلات أنّ المقاومة الوطنيّة هي الأمل الوحيد لتحرير العراق، وأنّ المقاومة المسلّحة هي الوسيلة الوحيدة الممكنة لمقاتلة الاحتلال والحكومة العراقيّة. تزيد نور تفصيلاً: «تفترض الحكومةُ أنّنا جزءٌ من المقاومة ولا تقدّم لنا أيّ دعم. لقد أصبحت المقاومةُ الوطنيّة في العراق هي المجموعة الوحيدة التي نستطيع الالتفاتَ إليها لمدّنا بالأمن والدفاع عن حقوقنا في العيش بشكل مستقلّ في بلدنا. وإنْ كانت الحكومة ضدّنا، وكانت المقاومة ضدّ الحكومة، فنحن جميعًا بالطبع جزءٌ من المقاومة.»

واعتبر بعضُ النساء أنّ الالتحاق بالمقاومة شرف، لكنّ بعضهنّ قبلن القيود دون ذلك، ومن بينها أنّهنّ أمّهاتٌ يربّين أطفالاً ويعملن معيلاتٍ وحيداتٍ للعائلة ولو كان أزواجهنّ أحياء (لأنّ هؤلاء قد لا يستطيعون العمل أصلاً أو يعيلون أقاربَ آخرين فقدوا معيليهم)؛ وأنّهنّ إنْ قُتِلن فقد يتسبّبن في ضرر يفوق النفعَ لأنّهنّ سيتركن وراءهنّ أطفالاً يتامى. ولذلك يختار معظمُهنّ الالتحاق بالمقاومة السياسيّة إذ يعتبرن ذلك الطريقة الأكثر فعّاليةً في المقاومة.

نساءٌ يرفضن الانضمام إلى المقاومة المسلحة

إذنْ، فبعض النساء يَمْلكن حافزًا ذاتيًا للانضمام إلى المقاومة المسلّحة ليصبحن مقاتلات. لكنّ من المهمّ أيضًا مناقشة النساء اللواتي لا يملكن الرغبةَ في الانضمام إلى المقاومة المسلّحة وإنْ كنّ يدعمنها سياسيًا ـ فبعضهنّ تمنعهنّ الواجباتُ العائليّة، فيما قالت أخرياتٌ إنهنّ لن يفعلن ذلك لو سنحت لهنّ الفرصةُ لأنّ احتمال حدوث خطأ يودي بحياة مواطن عراقيّ خلال تنفيذ عمليّةٍ ما سببٌ كافٍ لردعهنّ عن الاشتراك.

لكنّ هؤلاء النساء لا يزلن مكرّسات لقضيّة المقاومة المسلّحة ويؤمنّ كثيرًا بـ «شرفها،» بيْد أنّهنّ يكتفين بالدعم السياسيّ للحركة. تنشط «مروى» بزخم في المقاومة السياسيّة عبر تنظيم المؤتمرات والعمل على تعليم زوجات قتلى الحرب والاحتلال مهاراتٍ مهنيّةً من شأنها أن تؤمّن لهنّ دخلاً مستقرًا، لكنّها ترفض الانخراطَ في المقاومة المسلحة؛ فقد شهدتْ، حين كانت لم تزل في بغداد عام ٢٠٠٦، عمليّةً نظّمها رجالُ المقاومة ضدّ دبّابةٍ أمريكيّة:

ـ مروى: نجحت العمليّةُ في إصابة هدفها، والحمدُ لله. لكنْ، في لحظة التفجير، صادف أنّ صبيًا صغيرًا كان يعْبر من وراء الدبّابة. لم يستطع الرجلُ الذي كان يضغط على الزناد أن يراه. انفجرت القنبلةُ ومات الصبيّ البالغ من العمر ١١ سنة، وكنتُ أعرفه شخصيًا لأنه كان يقطن في شارعنا. شاهدتُ جسده يتمزّق أشلاء.

ـ نوفة: أليس من النفاق دعمُ المقاومة سياسيًا فقط؟ فأنتِ حين تفعلين ذلك، فإنك تتقبّلين أخطاءها؟

ـ مروى: لا حركة بلا بعض الجوانب السلبيّة. لكنّ المقاومة الوطنيّة المسلّحة في العراق تملك من الجوانب الإيجابيّة أكثر

---

١ ـ تم تغيير الأسماء لحماية هويّات النساء

٢ ـ تشير كلمة «المحتلّين» هنا أيضًا إلى العراقيين المتعاونين مع المحتلّين، أي العاملين في الحكومة وتشمل أيضًا الشركاتِ الأمنيّةَ والقواتِ الأجنبيّةَ غير المصنّفة رسميًا من ضمن الجيش الأميركيّ

من السلبيّة. أما الأخطاء التي تحصل أحيانًا فهي نتاجُ أفراد ولا تمثّل الحركة ككلّ. ويبقى الهدف الرئيس للمقاومة مشرّفًا، وهو في مصلحة الشعب العراقيّ.

يمكن استشفافُ فهمٍ مماثلٍ من المقابلات الأخرى مع بقيّة النساء: الجوانب الإيجابيّة للحركة تتفوّق بكثير على الأخطاء الاستثنائيّة أو الحسابات الخاطئة. وتشمل اللائحة الآتية بعضَ المنافع المسبغة على المقاومة الوطنيّة العراقيّة المسلّحة التي وردتْ في المقابلات المختلفة: ١ ـ المقاومة الوطنيّة العراقيّة المسلحة هي للشعب العراقيّ ومنه. ٢ ـ أنها تحمي الشعب العراقيّ. ٣ ـ أنها تهتمّ بشكل خاصّ، ماليًا وأمنيًا، بأرامل رجال المقاومة. ٤ ـ أنها تعامل المسلّحاتِ في مجموعاتها على قدم المساواة مع الرجال من حيث الأدوار التي يكلّفن بها. ٥ ـ يتمتّع هدفها، المتمثّل في تحرير الشعب العراقيّ، بأولويّة على الخلافات السياسيّة والدينيّة والمجتمعيّة.

خلاصة

بدأتُ هذا البحث بطرح السؤال الآتي: إلى أيّ مدًى يمكن اعتبارُ النسويّة الليبراليّة أداةً مفيدةً في تقييم المقاومة الوطنيّة؟ ليست الإجابةُ التي سأقدّمها جازمةً، بل هي تراكمُ أفكارٍ مختلفةٍ تقوم على البحث الذي أجريناه. ولا يهدف هذا البحثُ إلى التشكيك في مدرسة الفكر النسويّ، بل يسعى فقط إلى توسيع آفاق هذه المدرسة من خلال تمثيل حالة نساء العراق.

تَعتبر النسويّةُ الليبراليّةُ انخراطَ النساءِ في حركة المقاومة الوطنيّة فعلاً استغلاليًا وبطركيًا ومستضعفًا كما رأينا. والأهمّ أنّ النسويّات الغربيّات يرين أنّ على النساء العراقيّات الانخراط في منظماتٍ غير حكوميّة أجنبيّة تعمل على قضايا النساء وحقوقهنّ، التي قد يُعتبَر بعضُها ثانويًا في أهميّته في ظلّ ظروفهنّ الاستثنائيّة. وبهذا المعنى، تُخفق النسويّةُ الليبراليّةُ في الاعتراف بأنّه، في حالة نساء العراق اللواتي يعشن تحت احتلال قوًى خارجيّة وداخليّة، يُعتبَر الانخراطُ في مقاومة وطنيّة مسلحة أمرًا ضروريًا؛ وبدلاً من أن تكون المقاومةُ استغلاليّة، فهي تفسح للنساء فضاءً سياسيًا يعبّرن فيه عن حاجاتهنّ والتغييرات التي يطالبن بها

إنّ النظريّة القائلة بأنّ الوطنيّة والانخراط في مشروع وطنيّ أمران سلبيّان ويساهمان في تعزيز البطركيّة نظريّةٌ غربيّةُ الأساس لا تأخذ في الاعتبار ظروفَ النساء في العراق مثلاً. فهؤلاء النساء عشن ويعشن في ظروف استثنائيّة تضعهنّ في ظروفٍ فريدةٍ لا تكون فيها الوطنيّةُ مجردَ شعور تجاه وطن أو أمّة، بل تغدو أسلوبَ حياة. فالأمّ العَرَاقيّة، مثلاً، تدرك أنّ لحرّية وطنها من الأولويّة ما يساوي أمنَ أولادها. وبعض النساءالعراقيّات ينضمّ إلى المقاومة انطلاقًا من شعورهنّ بالانتماء إلى وطنهنّ، ومن حاجة ذاتيّة إلى التحرّر من احتلال داخليّ بقدر ما هو خارجيّ.

لندن

راوي هذه الرواية، أو أحد الرواة، يقول، في لحظة من اللحظات : «في داخل كلّ قارئ شهريارُ غافٍ.» ألا يمكن القول كذلك: «في داخل كلّ كاتب شهرزادُ غافية»؟ فماذا لو كانت شهرزاد وشهريار، في الخيط الرفيع من الدّم والقسوة والفنّ والخيال الذي يجمع بينهما، هما النّموذج والنّبض البعيد الحاضر في كلّ رواية وكلّ سرد؟ وماذا لو كانت «ألف ليلة وليلة» هي نغمة القرار في كلّ صوت من أصوات الرواة وهم ينغّمون عالمهم الروائيّ؟ وماذا لو كان ما كُتب من الرّوايات بعدد الحصى والنّجوم ليس سوى تنويع على صوت شهرزاد الهامس بحكاياته في ليل بغداد؟

هذه الرّواية، بتشابك رواتها وتحابك شخصياتها، آتية إلينا من دائرة السّحر التي خلقتها وتخلقها شهرزاد حتّى لا ينقطع السّرد ولا الكلام ولا الفنّ.

عبد الكبير الشّرقاوي